بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

# مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا

الحَمْدُ للهِ جَاعِلِ اليُسْرِ بَعْدَ العُسْرِ وَالسَّرَّاءِ بَعْدَ الضَّرَّاءِ، وَأَشْهَدُ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الحَمْدُ وَالشُّكْرُ وَالفَضْلُ وَالثَّنَاءُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، أَعَظْمُ المُتَفَائِلِينَ وَخَيْرُ المُرْسَلِينَ وَالأَنْبِيَاءِ، ﷺ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَأَتْبَاعِهِ، أَهْلِ البِرِّ وَالإِحْسَانِ وَالتَّفَاؤُلِ وَالوَفَاءِ.

أَمَّا بَعْدُ، فَالتَّقْوَى رَأْسُ كُلِّ فَضِيلَةٍ، وَأَسَاسُ البُعْدِ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ وَعَيْبٍ، وَسِرُّ القُرْبِ مِنَ اللهِ، وَالوُصُولِ إِلَى كِفَايَتِهِ وَرِضَاهُ ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[1].

أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ:

إِنَّ مِنَ الدُّرُوسِ العَظِيمَةِ مِنَ الحَادِثَةِ الكُبْرَى، حَادِثَةِ الهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ، التَّفَاؤُلَ، وَمَا أَحْوَجَنَا إِلَى التَّفَاؤُلِ! لأَنَّ القُنُوطَ يُنْهِي حَيَاةَ الإِنْسَانِ وَيَجْعَلُهَا مِنْ غَيْرِ قِيمَةٍ، وَالتَّفَاؤُلَ يَجْعَلُ الحَيَاةَ مُسْتَمِرَّةً، وَيَأْخُذُ بِالإِنْسَانِ شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى بَرِّ الأَمَانِ؛ لِيَكُونَ مِنَ السُّعَدَاءِ فِي الدُّنْيَا، وَالفَائِزِينَ فِي الآخِرَةِ، وَمَا مِنْ إِنْسَانٍ إِلاَّ وَيَمُرُّ بِمَا يَحْزُنُهُ وَيَشُقُّ عَلَيْهِ وَلَوْ كَانَ نَبِيًّا، إِلاَّ أَنَّ تِلْكَ الشِّدَّةَ يَعْقُبُهَا رَخَاءٌ، وَذَلِكَ العُسْرَ يَتْلُوهُ يُسْرٌ، وَالحُزْنَ يَأْتِي بَعْدَهُ الفَرَحُ، وَلَوْلا تِلْكَ الشَّدَائِدُ الَّتِي يَمُرُّ بِهَا الإِنْسَانُ لَمَا اجْتَهَدَ فِي إِيجَادِ الوَسَائِلِ الَّتِي تُخَلِّصُهُ مِنَ الشِّدَّةِ، فَلَوْلا الحَرُّ لَمَا اخْتَرَعَ الإِنْسَانُ طُرُقًا وَآلاتٍ لِلتَّبْرِيدِ، وَلَوْلا البَرْدُ لَمَا ابْتَكَرَ وَسَائِلَ التَّدْفِئَةِ، وَلَوْلا هَذِهِ الأَمْرَاضُ لَمَا اجْتَهَدَ فِي إِيجَادِ الدَّوَاءِ، وَلَوْلا الفَقْرُ لَمَا بَحَثَ عَنْ وَسَائِلِ الغِنَى ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾[2].

وَلَوْلا تِلْكَ الشَّدَائِدُ الَّتِي لَقِيَهَا النَّبِيُّ ﷺ وَلَقِيَهَا أَصْحَابُهُ، لَمَا تَهَيَّأَتِ الأَسْبَابُ لِلْهِجْرَةِ الشَّرِيفَةِ؛ فَكَانَتْ تِلْكَ الهِجْرَةُ بِدَايَةَ القُوَّةِ وَالانْتِشَارِ، وَإِنْ كَانَ ظَاهِرُهَا ضَعْفًا، وَكَانَ سَبَبُهَا ضَعْفًا

(١) سورة الجاثية/ ١٩.
(٢) سورة القمر/ ٥.

وَعَدَمَ قُدْرَةٍ عَلَى الوُقُوفِ فِي وَجْهِ الشَّدَائِدِ وَالمِحَنِ الَّتِي بَقِيَتْ تَعْصِفُ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَأَتْبَاعِهِ ثَلاثَةَ عَشَرَ عَامًا، حَتَّى اسْتَبْطَأَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نَصْرَ اللهِ، وَكَيْفَ لا يَقُولُونَ: ﴿ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ﴾[1]! وَقَدْ صَوَّرَ القُرْآنُ مَا مَرَّ بِهِمْ مِنْ مِحَنٍ فِي صُورَةِ زِلْزَالٍ فَقَالَ: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾[2] .

وَفِي كُلِّ هَذِهِ الظُّرُوفِ – الَّتِي هِيَ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ ظُرُوفٍ قَدْ يَمُرُّ بِهَا إِنْسَانٌ – كَانَ النَّبِيُّ ﷺ مُتَفَائِلًا، مُسْتَبْشِرًا بِفَرَجِ اللهِ القَرِيبِ، وَيُبَشِّرُ المُؤْمِنِينَ بِقُرْبِ ذَلِكَ الفَرَجِ؛ فَكَانَ ذَلِكَ دَافِعًا لِلْمُؤْمِنِينَ إِلى الثَّبَاتِ عَلَى إِيمَانِهِمْ، وَالتَّضْحِيَةِ فِي سَبِيلِ نُصْرَةِ ذَلِكَ الإِيمَانِ وَوُصُولِهِ إِلَى مَشَارِقِ الأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، فَقَدْ كَانَ مِنْ تَفَاؤُلِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ يُبَشِّرُهُمْ بِالأَمْنِ وَهُمْ فِي أَشَدِّ أَحْوَالِ الخَوْفِ، فَيَقُولُ لأَحَدِ أَصْحَابِهِ: (( فَإِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ، لَتَرَيَنَّ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالكَعْبَةِ، لا تَخَافُ أَحَدًا إِلاَّ اللهَ ))، قَالَ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ: " فَرَأَيْتُ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالكَعْبَةِ، لا تَخَافُ إِلاَّ اللهَ ".

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ لأَصْحَابِهِ وَقَدِ اشْتَدَّ بِهِمُ الأَمْرُ: (( لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ))، وَتِلْكَ هِيَ أَخْلاقُ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ الَّتِي أَدَّبَهُمْ رَبُّهُمْ بِهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهُمْ، فَقَدْ قَالَ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلامُ لِبَنِيهِ: ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[3]، فَالتَّفَاؤُلُ مِنْ أَخْلاقِ المُؤْمِنِينَ، وَالقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ مِنْ صِفَاتِ القَوْمِ الكَافِرِينَ، وَقَدْ قَالَ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلامُ لِبَنِيهِ ذَلِكَ القَوْلَ وَقَدْ غَابَ عَنْهُ يُوْسُفُ عَلَيْهِ السَّلامُ سَنَوَاتٍ طَوِيلَةً، إِلاَّ أَنَّ التَّفَاؤُلَ مَا فَارَقَهُ حَتَّى جَمَعَهُ اللهُ بِوَلَدِهِ.

أَقُولُ قَوْلِي هَذَا، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ العَظِيمَ لِي وَلَكُمْ، فَاسْتَغْفِرُوهُ يَغْفِرْ لَكُمْ، إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ، وَادْعُوهُ يَسْتَجِبْ لَكُمْ، إِنَّهُ هُوَ البَرُّ الكَرِيمُ.

********

(١) سورة البقرة/ ٢١٤ .
(٢) سورة البقرة/ ٢١٤.
(٣) سورة يوسف/ ٨٧.

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَأَشْهَدُ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، ﷺ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَأَتْبَاعِهِ المُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ.

أَمَّا بَعْدُ،

فَاتَّقُوا اللهَ –عِبَادَ اللهِ– وَانْظُرُوا إِلَى عَظِيمِ تَفَاؤُلِ النَّبِيِّ ﷺ وَحُسْنِ ظَنِّهِ بِاللهِ، فَفِي تِلْكَ الحَالِ الشَّدِيدَةِ –وَقَدْ وَصَلَ المُشْرِكُونَ إِلَى بَابِ الغَارِ الَّذِي كَانَ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ وَصَاحِبُهُ– يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ لِصَاحِبِهِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ وَقَدْ حَزِنَ خَوْفًا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ: ﴿لَا تَحْزَنْ﴾[١]، لِلَّهِ مَا أَعْظَمَهُ مِنْ تَفَاؤُلٍ! وَمَا أَوْثَقَ حُسْنَ الظَّنِّ ذَلِكَ بِاللهِ! أَيُقَالُ فِي تِلْكَ الحَالِ ﴿لَا تَحْزَنْ﴾[٢]، وَلَوْ نَظَرَ أَحَدٌ مِنَ المُشْرِكِينَ إِلَى قَدَمِهِ لَرَأَى النَّبِيَّ ﷺ وَصَاحِبَهُ! تَاللهِ لَيْسَ هُنَاكَ دَرْسٌ فِي التَّفَاؤُلِ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا الدَّرْسِ، لا فِي السَّابِقِينَ وَلا فِي اللاحِقِينَ، ثُمَّ يَزِيدُهُ النَّبِيُّ ﷺ مَا لا يَكُونُ مَعَهُ إِلاَّ اليَقِينُ بِمَعِيَّةِ اللهِ وَنَصْرِهِ وَتَأْيِيدِهِ، فَيَقُولُ لَهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[٣]، وَمَنْ كَانَ مَعَهُ اللهُ كَفَاهُ اللهُ كُلَّ شَيْءٍ ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾[٤]، وَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: ((مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا!))، فَكَانَ مِنْ أَمْرِ اللهِ مَا حَصَلَتْ بِهِ الكِفَايَةُ، وَوَصَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ، وَسَعِدَ مُنْتَظِرُوهُ بِاسْتِقْبَالِهِ، وَكَانَ بَعْدَ هَذِهِ الحَادِثَةِ شَأْنٌ لِلإِسْلامِ وَالمُسْلِمِينَ؛ لِيَكُونَ حُكْمَ اللهِ الَّذِي لا يُرَدُّ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[٥].

هذَا، وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ الأَمِينِ، فَقَدْ أَمَرَكُمْ رَبُّكُمْ بِذَلِكَ حِينَ قَالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾[٦].

اللَّهُمَّ صَلِّ وسَلِّم عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ وسَلَّمتَ عَلَى نَبِيِّنَا إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ نَبِيِّنَا إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى نَبِيِّنَا

(١) سورة التوبة/ ٤٠.
(٢) سورة التوبة/ ٤٠.
(٣) سورة التوبة/ ٤٠.
(٤) سورة الزمر/ ٣٦.
(٥) سورة التوبة/ ٣٣.
(٦) سورة الأحزاب/ ٥٦.

إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ نَبِيِّنَا إِبْرَاهِيمَ فِي الْعَالَمِينَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، وَارْضَ اللَّهُمَّ عَنْ خُلَفَائِهِ الرَّاشِدِينَ، وَعَنْ أَزْوَاجِهِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَعَنْ سَائِرِ الصَّحَابَةِ أَجْمَعِينَ، وَعَنِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وعَنْ جَمْعِنَا هَذَا بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

اللَّهُمَّ اجْعَلْ جَمْعَنَا هَذَا جَمْعًا مَرْحُومًا، وَاجْعَلْ تَفَرُّقَنَا مِنْ بَعْدِهِ تَفَرُّقًا مَعْصُومًا، وَلا تَدَعْ فِينَا وَلا مَعَنَا شَقِيًّا وَلا مَحْرُومًا.

اللَّهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلامَ وَاهْدِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْحَقِّ، وَاجْمعْ كَلِمَتَهُمْ عَلَى الخَيْرِ، وَاكْسِرْ شَوْكَةَ الظَّالِمِينَ، وَاكْتُبِ السَّلامَ وَالأَمْنَ لِعِبادِكَ أَجْمَعِينَ.

اللَّهُمَّ يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ يَا ذَا الجَلالِ وَالإِكْرَامِ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ بِكَ نَستَجِيرُ، وَبِرَحْمَتِكَ نَستَغِيثُ أَلاَّ تَكِلَنَا إِلَى أَنفُسِنَا طَرفَةَ عَينٍ، وَلاَ أَدنَى مِنْ ذَلِكَ، وَأَصلِحْ لَنَا شَأْنَنَا كُلَّهُ يَا مُصلِحَ شَأْنِ الصَّالِحِينَ.

اللَّهُمَّ رَبَّنَا احْفَظْ أَوْطَانَنَا وَأَعِزَّ سُلْطَانَنَا وَأَيِّدْهُ بِالْحَقِّ وَأَيِّدْ بِهِ الْحَقَّ يَا رَبَّ العَالَمِينَ، اللَّهُمَّ أَسْبِغْ عَلَيْهِ نِعمَتَكَ، وَأَيِّدْهُ بِنُورِ حِكْمَتِكَ، وَسَدِّدْهُ بِتَوفِيقِكَ، وَاحفَظْهُ بِعَينِ رِعَايَتِكَ.

اللَّهُمَّ أَنْزِلْ عَلَيْنَا مِنْ بَرَكَاتِ السَّمَاء وَأَخْرِجْ لَنَا مِنْ خَيْرَاتِ الأَرْضِ، وَبَارِكْ لَنَا في ثِمَارِنَا وَزُرُوعِنَا وكُلِّ أَرزَاقِنَا يَا ذَا الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ.

رَبَّنَا آتِنَا في الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ.

اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَات، المُسْلِمِينَ وَالمُسْلِمَات، الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالأَمْوَاتِ، إِنَّكَ سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبُ الدَّعَاءِ.

عِبَادَ الله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾.